الافتتاحية

الاجتهاد تحت مظلّة واحدة

غسان زقطان

يفتح الفلسطينيون سنة ثالثة من عمر الانتفاضة الثانية ومئة أخرى من عقود المواجهة مع المشروع الصهيوني ببساطة المقاوم وعناده ورغبته في حريته.

لقد اتضح مصير المقاومة الذي توارثوه كما ورثوا الاسم والذاكرة واللغة، والحقّ في الحياة، لم تنته الحرب كما حاول البعض إيهامهم ذات يوم، ولم تتحرّر البلاد كما بالغ هذا الوهم في ذهابه نحو أحلامهم ووقائعهم!

فجأة، ظهر جنود الاحتلال في البيوت والأحواش وعلى التلال وفي غرف الصفوف، كأنّهم لم يغادروا يوماً حلمهم في كسر هذه الأرض وتسييجها بما عليها!

جيل جديد من المحتلّين والقتلة، وجيل جديد من المقاومين على الأرض نفسها، لم يعد ممكناً مواصلة عبث البحث عن شراكة القاتل أو تأمّل يديه وتفسير صوته، الأمر يبدو أكثر صفاءً هذه المرّة وأكثر وضوحاً وأقرب إلى نواة الرواية حيث يتحول كل شيء إلى مطر من الدم.

في الجوهر نشبه أهلنا في سنوات النصف الثاني من الأربعينيات، فجأة، تعود الأشياء إلى صفاتها الأولى وتتجمّع فلسطين التي تعدّدت خلال نصف قرن ..، لم نتغير كثيراً، بل لعلّنا لم نتغير أصلاً والبلاد لم تتبدّل ولم تهلك كما خُيّل للعابرين والمارة!

وفيما يبدو فوضى، يمكن أن تتقدم تلك الحاجة للحوار مع الذات أولاً، الحوار الذي يتبادله مقاتلان خلف الساتر الترابي أو الأسيران في معتقل أنشئ على عجل أو معتقلان تحت حظر التجول!

حوار مبني على الشراكة في المصير والدم، هذه الشراكة التي تمنح الحق في بناء الأسئلة وإطلاقها وفي إدارة الجدل وتعميقه، أسئلة لا تفرض نفسها بقدر ما تقدم اقتراحها..

في كل المحطات الرئيسة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، كان هناك دائماً هذا البعد الذي حصّن الاتجاه العريض ، وأضاف إليه ومنحه القوة والطاقة اللتين منحتا هذا الشعب القدرة على البقاء والثبات وحماية الهوية الوطنية رغم شراسة الهجوم وفاشية الغزاة وتهالك المحيط وتردّيه.

كان ذلك واضحاً عشية الثورة الكبرى العام 1936 وعام النكبة 1984 وعام انطلاقة فتح 1965 وبعد هزيمة الأنظمة العربية في 1967، وصبيحة حرب تشرين 1973 وحصار بيروت 1982 وأثر العدوان على العراق 1990.. وهو ما يحدث الآن، أيضاً، بعد سنتين من الانتفاضة الثانية واجتياح المدن والقرى والبلدات الفلسطينية.

من الطبيعي أن يكون هناك أسئلة جديدة وجدل واقتراحات طالما أنّ هناك اتفاقاً واضحاً على الثوابت الوطنية، وهي واجب وحقّ مقاومة الاحتلال ودحره حتى الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

تحت مظلة هذه الثوابت، يصبح الحوار ضرورياً ويكتسب قيمة الواجب وحقوقه.

الحوار هنا يأخذ بعد البحث في وسائل مقاومة الاحتلال وليس جوهر المقاومة نفسها، ويذهب إلى تفاصيل مبنية على الاجتهاد حول الأهداف والتوقيت والشكل..، دون المسّ بقدسية المقاومة وبطولة المقاومين، وهو في هذا جزء من عملية مقاومة الاحتلال نفسها.

ولأنّ مثل هذه الاجتهادات تدخل في سياق الجدل السائد ولا تخرج عن فكرة إبداء الرأي وتوضيح وجهة النظر الشخصية، فهي، أيضاً، حق وواجب ولا ينبغي تزويرها أو البحث عما يدينها من خلال بعدها أو قربها من برنامج سياسي أو فكرة أخرى مغايرة أو وجهة نظر حزبية، فهي تعبر بالضبط عن آراء أصحابها والموقعين عليها ولا تدعي أكثر من ذلك.

إنّ قوة المقاومة الفلسطينية تكمن هنا في تحديد الثوابت الوطنية ووحدة قواها من جهة، وحرية التعبير والجدل داخل هذا الإطار وضمن هذه الخطوط من الجهة الأخرى، بهذا يمكن للمركب أن تعبر المضيق بمجدافين وأن تحقق توازنها في مواجهة الموجة..

ولعلنا، في المركز الثقافي الفلسطيني «بيت الشعر»، وضمن محاولتنا لتقديم نموذج للمؤسسة الثقافية الفاعلة والحديثة والقادرة على الحياة، اجتهدنا في فصل مؤسستنا عن السائد، وكان هذا واضحاً في البيان التأسيسي عندما نأينا بأنفسنا ومؤسستنا أن تكون خطاب السياسي أو خصمه، وتركنا لحرية التعبير الشخصية مداها وفضاءها طالما أنها تتحرك تحت مظلة الثوابت الوطنية المتفق عليها.

هذا، في رأينا، ما يعزّز من دور المؤسسة الثقافية ويمنحها بعدها الحقيقي وينأى بها عن فكرة الحزب الضيقة.

بهذه الروح نتعامل كأفراد يحملون جدلهم وحوارهم واقتراحاتهم عما يصدر في الساحة الوطنية من أفكار وأسئلة، وبهذه الروح نقرأ النص الإبداعي، أيضاً، ونفتح الأمر على احتمالاته.